مفهوم الثّقافة في البحوث الأنثروبولوجيّة
قراءة في سياقات النّشأة ومسارات التّداول

كوسة نورالدّين
باحث وأكاديمي من الجزائر في اختصاص الأنثروبولوجيا الثَّقافيَّة
koussanoureddine@yahoo.fr

[ملخّص]

يأتي هذا البحث للوقوف على مفهوم الثّقافة في البحوث الأنثروبولوجيّة، من خلال قراءة في سياقات النّشأة ومسارات التّداول، بفعل العلاقة المتشابكة التي نشأت بين الثّقافة والأنثروبولوجيا بوجه خاص باعتبارها مفهومًا مركزيًّا ضمن هذا الاختصاص العلمي، بغية مُلامسة ذلك الخيط النّاظم لمسار انتقال هذا المفهوم المركزي وَفق مسار تصاعدي من اللّغة العامّة إلى حيز الدّلالات ذات الصّلة بالاختصاص العلمي في مجال البحوث الأنثروبولوجيّة، وذلك لأنّ استحضار السّياقات الفكريّة والحضاريّة التي أفضت إلى نشأة وتبلور مفهوم الثّقافة ضمن سياق علاقته بالأنثروبولوجيا كتصوّر وكممارسة أكاديميّة، يقودنا إلى الوقوف على أهميّة الأنثروبولوجيا باعتبارها من المحاضن المعرفيّة التي أسهمت بشكل لا يُستهان بأهميته في بلورة مفهوم الثّقافة، من حيث تأثيرها وانعكاسها في رسم المعالم الدّلاليّة التي أضحت لصيقة بهذا المفهوم ضمن حقول التّداول التي رافقت تطوّر البحوث الأنثروبولوجيّة منذ نشأة هذه الأخيرة إلى غاية الزّمن الرّاهن.

كلمات المفتاح: الثّقافة، الأنثروبولوجيا، السّياق الفكري، حقول التّداول، المفهوم المركزي.

[Abstract]

Research Title

«The Concept of Culture in Anthropological Research».

- Reading in the context of origin and trading tracks -

This research aims at understanding the concept of culture in anthropological research, through reading in the context of origin and the course of trading, because of the interrelationship that developed between culture and anthropology in particular as a central concept within this scientific specialization, in order to deal with that thread governing the course of transmission of this central concept according to the course Ascending from the general language into the realm of connotations related to scientific competence in anthropological research, because the evocation of the intellectual and cultural contexts that led to the emergence and crystallization of the concept of culture within the context of its relationship with anthropology And the academic practice, leads us to recognize the importance of anthropology as a cognitive incubator that contributed significantly to its importance in crystallizing the concept of culture in terms of its impact and reflection in the drawing of the semantic monuments that have become close to this concept within the fields of trading that accompanied the development of anthropological research since the inception of this latter To the present time.

Key Concepts: Culture, Anthropology, Intellectual Context, Trading Fields, Central Concept.

مقدّمة

لقد جاء هذا البحث الموسوم بـ«مفهوم الثّقافة في البحوث الأنثروبولوجيّة»، -قراءة في سياقات النّشأة ومسارات التّداول-، بغرض رصد مسار تبلور مفهوم الثّقافة باعتباره من المفاهيم المركزيّة في البحوث الأنثروبولوجيّة، ووفق هذا السّياق فإنَّه من الجدير التطرّق بشيء من التفصيل إلى إشكاليّة العلاقة بين الثّقافة والأنثروبولوجيا، ثم الانتقال إلى مناقشة مسألة الحراك التّصاعدي لهذا المفهوم من الوجهة الأنثروبولوجيّة، محاولين ضمن هذا المنحى التّركيز على إسهامات عالِم الأنثروبولوجيا البريطاني تايلور إدوارد بيرنت بوجه خاص، لكونها من ضمن الإسهامات الرّائدة في هذا الشّأن، دون إغفال الإشارة إلى مآلات هذا المفهوم خلال مرحلة ما بعد تايلور وانعكاسات نزعة التّمركز العرقي في كبح مجهودات الباحثين في بلورة مفهوم يحظى بالإجماع، لننهيَ هذا البحث بمناقشة المسار التّداولي الذي أضحى لصيقًا بمفهوم الثّقافة مع التّيار البنيوي وأفول نزعة التّمركز العرقي، مع تضمين البحث لخاتمة تمثل بعض النّتائج التي أمكن لنا رصدها.

(ا) إشكاليّة العلاقة بين الثّقافة والأنثروبولوجيا:

تمثّل الأنثروبولوجيا واحدة من التخصّصات العلميّة الحديثة ضمن حقل العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة إذا ما قورنت بالتخصّصات الأخرى، فبرغم غياب تاريخ محدّد يكون محل إجماع بين الباحثين حول بداية الأنثروبولوجيا بدقّة، فإنّ جُل الكتابات المهتمّة بتاريخ هذا التخصّص تذهب إلى اعتبار النّصف الثّاني من القرن التّاسع عشر بمثابة البداية الفعليّة للأنثروبولوجيا كتخصّص علمي قائم بذاته، من حيث اندراجه ضمن حيّز المُمارسة الأكاديميّة الفعليّة[1]، وبرغم حداثة الأنثروبولوجيا كتخصّص علمي قائم بذاته فإنّها تعدّ من ضمن العلوم التي تتميّز بعلاقتها المعقّدة والمتشابكة في الآن نفسه بموضوع الثّقافة، والتي تَكْشف عن تلك الصّلة الوطيدة بينهما، لكون الثّقافة تعد أحد المرتكزات الإبستيمولوجيّة للأنثروبولوجيا بل من بين محاور اهتمامها المفضّلة، بحكم أنّه من ضمن الغايات الأساسيّة التي بُني عليها البحث الأنثروبولوجي منذ بداياته الأولى هو البحث في ثقافات الشّعوب.

---

(١) Jaque, Lombard, **Introduction à l'ethnologie,** Paris, Armand Colin,(١٩٩٩), p/ (٨-١٥).

والملاحظ أنّ تلك الصّلة الوثيقة بين الأنثروبولوجيا كتخصّص علمي والثّقافة كمفهوم وموضوع بحث في الآن نفسه، ما لبثت تأخذ مسارات تعكس ذلك الحراك التّصاعدي الذي شهده مجال البحث الأنثروبولوجي، من حيث النّضج التّدريجي الذي طرأ على مستوى منهج هذا الأخير وأدواته، وكذلك على مستوى منظومة المقاربات النّظريّة التي كان يتم على ضوئها تفسير الثّقافات الإنسانيّة والبحث في مختلف جوانبها، ولذا نرى من الأهمّيّة أن نحدّد المجال الدّلالي لمفهوم الثّقافة وبتعبير آخر ماذا نقصد بالمنظور الأنثروبولوجي للثقافة؟

إنّ مفهوم الثّقافة التي نحاول الخوض في حيثيّاته فيما يأتي هو الثّقافة بالمفهوم الأنثروبولوجي باعتباره موضوع بحث وليس أداة واصفة، بما يحوز عليه من ذاكرة وحمولة لغويّة وفكريّة وأيديولوجيّة، والذي تقسّمه آخر التّعريفات إلى قسمين، قسم الثّقافة المادّيّة وقسم الثّقافة اللا مادّيّة[٢]، وإذا كان القسم اللا مادّي من الثّقافة يشمُل كلًّا من الثّقافة العالمة والثّقافة الشعبيّة، وباعتبار أنّ الثّقافة العالمة هي تلك الثّقافة التي ترمز إلى«المعارف العلميّة والفنيّة والأدبيّة للفرد داخل المجتمع، وهي من اختصاص النّخبة المفكّرة»[٣]، ممثّلة في الآداب والمسرح والتّمثيل والفن، فإنّ هناك نمطًا آخر من الثّقافة الذي يُلامس كل فئات المجتمع وأفراده بمختلف انتماءاتهم الاجتماعيّة والثّقافيّة والذي يُعرف بالثّقافة الشّعبيّة.

(٢) الحراك التّصاعدي لمفهوم الثّقافة من الوجهة الأنثروبولوجيّة:

لعلّ أهم ما يلفت انتباه أيّ باحث حينما يحاول تتبّع مسألة تبلور مفهوم الثّقافة ضمن السّياق الأنثروبولوجي، أنّ هذا الأخير خضع لمنطق التطوّر من خلال الحراك التّصاعدي للتّعريفات التي عرفها، حيث إنّ تعريفاته «كانت تتطوّر تبعًا لتطوّر الاتّجاهات والمناهج والمُقاربات المختلفة»[٤]، ولا شكّ أنّ هذا

(٢) محفوظ، بن عبد الجليل، **أهمّيّة الثّقافة الحيّة والحياة الثّقافيّة لدى الشّعوب**، مجلّة الحياة الثّقافيّة، تونس، (العدد ٢١١)، وزارة الثّقافة والمحافظة على التّراث، (مارس٢٠١٠)، (ص/ ٣٢).

(٣) Patrice, Bonnewitz, **la sociologie de Bourdieu,** Paris, puf (١٩٩٧), (p/ ١٥).

(٤) عبد الغني، عماد، **سوسيولوجيا الثّقافة: المفاهيم والإشكاليّات من الحداثة إلى العولمة**، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربيّة، (٢٠٠٦)، (ص/ ٤٦).

التّحوّل والتطوّر الذي لازم مفهوم الثّقافة من الوجهة الأنثروبولوجيّة قد انطبق على أوّل تعريف له، وكذا على بقيّة التّعريفات الأخرى التي توالت تدريجيّا ضمن مسار تبلوُر هذا المفهوم.

ولذا فإنّ محاولتنا الهادفة إلى تتبّع المسار الذي أدّى إلى تبلور هذا المفهوم الذي أضحى متداولًا بشكل لافت في الأنثروبولوجيا المعاصرة، لا يكون عبر مُراكمة التّعاريف المختلفة لمفهوم الثّقافة أو ضمن سياق السّعي إلى صياغة مفهوم إجرائي له، بل سوف يندرج ضمن محاولة تتبّع المراحل الكبرى التي قطعها هذا الأخير، ولا شكّ أنّ تحقيق هذا المسعى إنّما يمر عبر البحث في دلالاته ومعانيه، وكذا رصد المحاضن المعرفيّة التي نشأ فيها وانتهاءً إلى إبراز حقل التّداول الذي يموج فيه هذا المفهوم.

والجدير بالإشارة أنّ هذه العمليّة تعدّ من الأمور المضنية والمحفوفة بكثير من المحاذير الإبستيمولوجيّة؛ لأنّ الثّقافة أضحت من المفاهيم الهلاميّة التي تقع على أرضيّة مشتركة بين تخصّصات علميّة عديدة في العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، بفعل حضوره ضمن كافّة هذه التّخصّصات وبدرجات متفاوتة، وباتّخاذه لمسارات جمّة وفقًا للسّياقات التي ورد ضمنها، وبذلك فهو لا يخلو من الغموض والالتباس في أحيان كثيرة، إذ لم يخضع مفهوم للتّعريفات المتعدّدة والمتشعّبة ومن زوايا مختلفة مثلما خضع له مفهوم الثّقافة.

والجدير بالإشارة أنّ هذه العمليّة تعدّ من الأمور المضنية والمحفوفة بكثير من المحاذير الإبستيمولوجيّة؛ لأنّ الثّقافة أضحت من المفاهيم الهلاميّة التي تقع على أرضيّة مشتركة بين تخصّصات علميّة عديدة في العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، بفعل حضوره ضمن كافّة هذه التّخصّصات وبدرجات متفاوتة.

وباعتبار أنّ المفاهيم المختلفة في العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة تنشأ أوّل الأمر ضمن محاضن معرفيّة مُعيّنة ثم يُقذف بها في حقل التّداول، حيث تكتسب تدريجيّا خصوصيّتها الإبستيمولوجيّة المستقلّة داخل السّياق العلمي الذي تندرج ضمنه، وهو ما ينطبق إلى حدّ ما على مفهوم الثّقافة من الوجهة الأنثروبولوجيّة؛ ولذا فإنّ البحث في خلفيّات تبلوره -مفهوم الثّقافة- يُوصلنا إلى حقيقة مفادها أنّ هذا الأخير هو نتاج لمسار طويل من

البنـاء والتّراكـم مـن خـلال محطّـات بـارزة واكبـت تاريـخ الفكـر الأنثروبولوجـي ككل.

حيـث أدّى ذلـك الحـراك التّصاعـدي لمفهـوم الثّقافـة إلى إفـراز تصـوّر يعكـس تاريـخ هـذا المسـار في تعاملـه مـع الفضـاء الثّقـافي مـن الوجهـة الأنثروبولوجيّـة، ولـذا فـإنّ الحفـر في مسـار تبلـور مفهـوم الثّقافـة ينبغـي أن يمـرّ عـبر اسـتعراض المعـالم الكـبرى التـي ارتسـمت خلالهـا الملامـح الرّئيسـيّة لهـذا المفهـوم بشـكل تدريجـي، والتـي انتهـت إلى تشـكُّل خطوطـه العريضـة المتعـارف عليهـا ضمـن حيـز الممارسـة الأنثروبولوجيّـة المعـاصرة.

(٣) التّأسيس لمفهوم الثّقافة من الوجهة الأنثروبولوجيّة مع تايلـور إدوارد بيرنـت:

لقـد كان لإدوارد بيرنـت تايلـور الفضـل في صياغـة أوّل تعريـف لمفهـوم الثّقافـة مـن المنظـور الأنثروبولوجـي ضمـن كتابـه الثّقافـات البدائيّـة الصّـادر سـنة (١٨٧١)[٥]، حيـث عرّفهـا بأنّهـا «هـي هـذا الـكل المركّـب الـذي يشـمل المعرفـة والمعتقـدات والفـن والأخـلاق والقانـون والعـادات وكل القـدرات والعـادات الأخـرى التـي يكتسـبها الإنسـان بوصفـه عضـوًا في المجتمـع»[٦]، وقـد جـاء هـذا التّعريـف الـذي صاغـه تايلـور في مرحلـة عرفـت فيهـا النّظريّـة التطوّريّـة أوج شـهرتها وفي مرحلـة احتـدم فيهـا الجـدل بـين مفهومـي الحضـارة والثّقافـة.

حيـث يبـدو مـن خـلال هـذا التّعريـف الـذي صاغـه تايلـور لمفهـوم الثّقافـة «أنّـه حريـص عـلى أن يكـون وصفيّـا وموضوعيّـا خالصًـا لا معياريًّـا، وهـو فضـلًا عـن ذلـك يقطـع مـع التّعريفـات الحصريّـة والفردانيّـة للثّقافـة، إنّ الثّقافـة بالنسـبة إلى تايلـور تُعـبّر عـن كليّـة حيـاة الإنسـان الاجتماعيّـة وتتميّـز ببعدهـا الجماعـي، والثّقافـة أخـيرًا مُكتسـبة ولا تتـأتّى إذا مـن الوراثـة البيولوجيّة، على أنّها ولـئن كان مكتسـبة فـإنّ أصلهـا وخاصّيتهـا لا واعيـين إلى حـدّ بعيـد»[٧]، ولـذا فـإنّ تايلـور بتعريفـه لمفهـوم الثّقافـة قـد اتّخـذ موقفًـا مـن هـذا الجـدل المحتـدم بـين مفهومـي الحضـارة والثّقافـة، كـما عُـدّ تعريفـه أيضًـا

(٥) Jean François, Couet, et Autres, **Dictionnaire de l'essentiel en sociologie,** Paris, l'iris, (٢٠٠٤), (p/ ٥٣).

(٦) دنيـس، كـوش، **مفهـوم الثّقافـة في العلـوم الاجتماعيّـة**، ترجمـة منـير السّـعيداني، مراجعـة الطّاهـر لبيّـب، بـيروت، المنظّمـة العربيّـة للتّرجمـة، (٢٠٠٧)، (ص/ ٣١).

(٧) لقـد آثرنـا أن نُـدرج هـذا التّعليـق المطـوّل حرفيّـا حـول تعريـف تايلـور للثّقافـة، الـذي صاغـه الأنثروبولوجـي الفرنسـي **كـوش دنيـس** ضمـن كتابـه مفهـوم الثّقافـة في العلـوم الاجتماعيّـة، باعتبـاره مـن ضمـن التّعاليـق التـي رأينـا أنّهـا تتّسـم بالدقّـة والعمـق في التّعبـير عـن أفـكار تايلـور في صياغتـه لمفهـوم الثّقافـة. [انظـر: المرجـع السّـابق، (ص/ ٣١)].

بمثابة تعبير عن وجهة نظره الخاصّة تجاه المنظور التّطوّري السّائد في البحوث الأنثروبولوجيّة خلال تلك الفترة، فمن خلال اعتبار تايلور أنّ العناصر اللا مادّية تعدّ جزءًا من الثّقافة فهو بهذا يقف ضدّ هيمنة مفهوم الحضارة التي ترتكز على العناصر المادّية من حياة الشّعوب.

ومن هنا فإنّ تعريف تايلور للثّقافة يُنصف الشّعوب المتخلّفة مادّيا، وعلى هذا الأساس وفق وجهة نظره «ليس بين البدائيين والمتحضّرين اختلاف في الطّبيعة بل مجرّد فارق في درجة التّقدّم»[٨]، ومن جهة أخرى وضمن سياق موقفه من النّظريّة التّطوّريّة حول الثّقافات الإنسانيّة، فإنّ تايلور الذي يُحسب على الاتّجاه التّطوّري لم يكن مُتعسّفا في الأخذ بهذا الاتّجاه بشكل مطلق، حيث «لم يكن تصوّره للتّطوّريّة متصلّبًا أبدًا، إذ لم يكن واثقًا تمامًا من وجود توازٍ مطلق في التّطوّر الثّقافي الخاص بمختلف المجتمعات»[٩].

وإذا كان هذا التّعريف لمفهوم الثّقافة من قبل تايلور ما زال محتفظًا بقيمة تأسيسيّة[١٠]، بفعل ريادته وكذا بفعل كونه تعريفًا غير مسبوق من قبل بقيّة الباحثين في زمانه برغم المجهودات المبذولة في هذا الإطار، فإنّه تميّز بمجموعة من الخصائص جعلت هذا التّعريف يخضع لمنطق التّغيّر وعدم الثّبات، وهي صفة اتّسم بها مفهوم الثّقافة من الوجهة الأنثروبولوجيّة على وجه الخصوص كما أشرنا إلى ذلك فيما تقدّم.

ولعلّ من ضمن هذه الخصائص تميُّز هذا المفهوم الذي صاغه تايلور حول الثّقافة بالشّموليّة[١١]، إلى جانب هُلامية عباراته وعدم دقّتها، ممَّا جعله منفتحا على تعديلات وإضافات جديدة أمكن إدخالها تباعًا تماشيًا والتّحوّلات التي طرأت على الممارسة الأنثروبولوجيّة في تعاملها مع الثّقافات الإنسانيّة، وهو ما حصل بالفعل في العقود اللاحقة من خلال ميلاد تصوّرات جديدة حول مفهوم الثّقافة من المنظور الأنثروبولوجي، هذه الأخيرة -أي التصوّرات- التي نشأت كردّ فعل على النّقائص التي ميّزت تعريف تايلور

(٨) المرجع السّابق، (ص/ ٣٣).

(٩) المرجع السّابق، (ص/ ٣٤).

(١٠) Pierre, Bonte, et Michel, Izard, **Dictionnaire de ethnologie et de anthrpologie,** Paris, puf, (٢٠٠٢), (p/ ١٩٠).

(١١) Jean François, Couet, et Autres, (op.cit), (p ٥٤).

للثّقافــة، وأســهمت مــن جهــة أخــرى في إثــراء المســار المتّبــع لبلــورة هــذا المفهــوم المحــوري في البحــوث الأنثروبولوجيّــة.

(٤) مفهوم الثّقافة ما بعد تايلور ونزعة التّمركز العرقي:

برغــم الانتقــادات التــي وُجّهــت للتّعريــف الخــاص لمفهــوم الثّقافــة الــذي صاغــه تايلــور فــإنّ هــذا التّعريــف مثّــل قاعــدة ارتــكاز قويّــة لمعــظم التّصــوّرات والتّعاريــف التــي جــاءت بعــده، ولــذا فــإنّ التّمعّــن في التّعاريــف الخاصّــة بمفهــوم الثّقافــة مــن المنظــور الأنثروبولوجــي التــي صيــغت في المراحل اللاحقــة لتعريف تايلور والتــي جــاءت وَفــق منحًــى تصاعديًــا، يكشــف أنّ معظــم هــذه التّعاريــف برغــم مــا تحملــه مــن لمســات جديــدة فهــي عبارة عن شُروح مُستــفيضة للــثّقافة نشأت عــلى هامــش التّعريــف الأصــلي لتايلــور، مــع إدخــال بعــض التّعديــلات تحــت تأثــير المَشــارِب الفكريّــة التــي ينحــدر منهــا أصحــاب هــذه التّعاريــف.

ولــذا فقــد عكــف أقطــاب المدرســة الأمريكيّــة المعروفــة بالأنثروبولوجيــا الثّقافيّــة عــلى التعمّــق في المســائل المتّصلــة بالثّقافــة، حيــث «حــاول الثّقافيــون بانتظــام أن يُعرّفــوا الثّقافــة رغــم الأخطــار المحدقــة باســتحالة المــشروع أو ابتذالــه»[١٢]، ولعــلّ مــردّ ذلــك هــو بقــاء التّصــوّرات اللّصيقــة بمفهــوم الثّقافــة الــذي صاغــه تايلــور حــاضرًا في ثنايــا هــذه التّعريفــات الجديــدة، مــمَّا ولّــد الخــوف مــن صعوبــة تحقــيق هــذه المهمّــة أو الوقــوع في التّكــرار والابتــذال، وبرغــم ذلــك فقــد حفــل تاريــخ الأنثروبولوجيــا خــلال النّصــف الأوّل مــن القــرن العشريــن بعــدد مــن المســاعي الهادفــة إلى إثــراء مفهــوم الثّقافــة مــن الوجهــة الأنثروبولوجيّــة.

وبهــذا فقــد «حقّقــت الأنثروبولوجيــا تقــدّمًا حاســمًا بعكوفهــا ليــس فقــط عــلى تعــريف الثّقافــة، بــل عــلى تحديــد ماهيــة انتقــال البشريّــة مــن حالــة الطّبيعــة إلى حالــة الثّقافــة»[١٣]، ولا شــكّ أنّ هــذا التقــدّم الحاســم في التّعامــل مــع مفهــوم الثّقافــة وتحديــد ماهيتــه مــن الوجهــة الأنثروبولوجيّــة خــلال هــذه المرحلــة -أي النّصــف الأوّل مــن القــرن العشريــن- لــم يكــن بمعــزل عــن توظيــف الاتّجاهــات النّظريّــة السّــائدة في الأنثروبولوجيــا، بدايــة بالتطوريّــة مــرورًا بالانتشــاريّة والوظيــفيّة

(١٢) /Pierre, Bonte, et Michel, Izard, (op.cit), (p ١٩٠).

(١٣) /Pierre, Bonte, et Michel, Izard, (op.cit), (p ١٩١).

ثم البنائيّة الوظيفيّة[١٤]، وهذا بغرض تفسير تلك الثّقافات وتحقيق فهم أوسع لها، من خلال القواعد والتّصوُّرات التي توفّرها تلك الاتّجاهات النّظريّة في سبيل تحقيق هذا المسعى.

وبرغم تعدّد التّعاريف المختلفة لمفهوم الثّقافة وكذا الاتّجاهات النّظريّة المفسّرة له خلال هذه المرحلة، فإنّ أهم ملاحظة يمكن رصدها ضمن هذا السّياق أنّ «مختلف التّعاريف الأنثروبولوجيّة حافظت على المقابلة بين الطّبيعي والثّقافي، تدعّمها المقارنات التي كانت رائجة بين الحيواني والإنساني، وبين ما هو بيولوجي أو فطري وبين ما هو مكتسب في الوجود الاجتماعي»[١٥].

ولذا فانّ هذه الجهود المبذولة وإن اختلفت في مرجعيّاتها والقواعد التّفسيريّة التي انبنت عليها، فإنّها كانت تهدف في نهاية الأمر إلى معالجة تلك المُفارقة الحادّة القائمة بين ثنائيّة الطّبيعة والثّقافة، ومن هنا فإنّ هذه المساعي والجهود بقدر ما كانت حريصة على تأكيد التّمازج الفعلي بين الطّبيعة والثّقافة في الحياة الإنسانيّة؛ فإنّنا نشعر بأنّها ميّالة إلى القول «بوجوب التّمييز بينهما، ولا بدّ أن تكون الثّقافة شيئًا مغايرًا للطّبيعة ومقابلًا لها، ولا بدّ أن يوجد فرق واضح وجليّ بين ما هو طبيعي وما هو ثقافي»[١٦].

غير أنّ المفاهيم والتصوّرات تجاه مفهوم الثّقافة وكذا آليات تفسيرها التي أمكن ابتداعها وصياغتها خلال النّصف الأوّل من القرن العشرين، أي مرحلة ما بعد تايلور وبرغم التّفاوت النّسبي فيما بينها من حيث درجة العمق في تناول العناصر الجزئيّة للثّقافة، ومن حيث الإلمام بحيثيّاتها وأبعادها الأنثروبولوجيّة على ضوء الدّراسات الميدانيّة، فإنّها كانت محكومة بنزعة استعلائيّة عنصريّة، من خلال نظرتها للثّقافات الإنسانيّة نظرة تراتبيّة تفاضليّة، وفق ثنائيّة ثقافة المجتمع الغربي المتحضّر والثّقافة المتخلّفة لبقيّة المجتمعات والشّعوب.

(١٤) للاطّلاع بشكل مفصّل على الاتّجاهات التّفسيريّة للثّقافة من خلال توظيف الاتّجاهات النّظريّة الأنثروبولوجيّة.
[انظر على سبيل المثال لا الحصر: عبد الغني، عماد، مرجع سابق، (ص/ ٥٠- ٥٧). دنيس، كوش، مرجع سابق، (ص/ ٥٣- ٥٨)].

(١٥) عبد الغني، عماد، مرجع سابق، (ص/ ٤٩).

(١٦) محرز، الحمدي، **الثّقافة وأسسها في النصّ القرآني ورموزه**، مجلّة معهد الآداب العربيّة، تونس، السنّة ٦٨، (العدد ١٩٥)، (جانفي٢٠٠٥)، (ص/ ٦).

ولا شكّ أنّ هذه النّظرة الاستعلائيّة التّفاضليّة للثّقافات قد غذّتها جملة من الخلفيّات التّاريخيّة والأكاديميّة، المتعلّقة بظروف ميلاد الأنثروبولوجيا في الجامعات الغربيّة وتوسّعها، كما انبنت هذه الرّؤية الاستعلائيّة للثّقافات على النّزعة المعروفة بالتّمركز العرقي -ethnocentrisme- أو التّمركز الإثني[١٧]، التي هيمنت لعقود طويلة على توجّهات التّفكير العلمي الغربي في نظرته إلى ثقافات الشّعوب المُغايرة للمجتمعات الغربيّة.

(٥) مفهوم الثّقافة مع التّيار البنيوي وأفول نزعة التّمركز العرقي:

لقد كان لصعود التّيار البنيوي في الأنثروبولوجيا الذي يتزعّمه الأنثروبولوجي الفرنسي كلود ليفي ستروس مع مطلع النّصف الثّاني من القرن العشرين، دورًا مباشرًا في كبح تلك التّوجُّهات التّقليديّة التي هيمنت على المفاهيم والرُّؤى المتّصلة بمفهوم الثّقافة من الوجهة الأنثروبولوجيّة، منذ نهايات القرن التّاسع عشر وطيلة العقود الأولى من القرن العشرين، حيث نجح التّيار البنيوي الذي أخذ يعرف طريقه إلى الشّهرة في حقل الممارسة الأنثروبولوجيّة منذ خمسينيّات القرن الماضي في إيجاد مكانة مُميّزة له، بما أدخله هذا التّيار من قواعد وتصوّرات جديدة في الأنثروبولوجيا، أكسبته صدى وشهرة غير مسبوقتين.

لقد كان لصعود التّيار البنيوي في الأنثروبولوجيا الذي يتزعّمه الأنثروبولوجي الفرنسي كلود ليفي ستروس مع مطلع النّصف الثّاني من القرن العشرين، دورًا مباشرًا في كبح تلك التّوجُّهات التّقليديّة التي هيمنت على المفاهيم والرُّؤى المتّصلة بمفهوم الثّقافة من الوجهة الأنثروبولوجيّة.

ولذا فإنّ التّيار البنيوي الذي مثّله ليفي ستروس سيطر على الحياة الثّقافيّة في أوربا حوالي عقدين من الزّمن، في الخمسينيّات والستّينيات -من القرن الماضي- ثم في خارجها، كما هي العادة في انتشار الأفكار والمناهج[١٨]،

(١٧) للاطّلاع بالتّفصيل على نزعة التّمركز العرقي في الفكر الأنثروبولوجي.
[انظر: Pierre, Bonte, et Michel, Izard, (op.cit), (p: ٢٤٧)].

(١٨) كاترين، كليمان، **كلود ليفي ستروس**، ترجمة محمّد علي مقلد، بيروت، دار الكتاب الجديدة المتّحدة، (٢٠٠٨)، (ص/ ٧).

ولا شكّ أنّ من ضمن المعطيات والرُّؤى الجديدة التي حملها التّيار البنيوي تلك المتعلّقة بمفهوم الثّقافة، حيث أطلّ علينا هذا التّيار بتصوّر جديد له، جاء ليضع حدّا لذلك التّعارض في المفاهيم الأنثروبولوجيّة، الذي غذّته تعدّد الاتّجاهات والمواقف تبعًا لتعدّد الاتّجاهات النّظريّة المفسّرة له.

لقد جاء التّعريف البنيوي لمفهوم الثّقافة بفعل الأبحاث الميدانيّة المعمّقة التي قام بها الأنثروبولوجي الفرنسي كلود ليفي ستروس، بغرض دراسة الأساطير وأنظمة القرابة بوجه خاص في بيئات اجتماعيّة وثقافيّة مغايرة تمامًا للبيئات الاجتماعيّة والثّقافيّة الأوربيّة، حيث أتاح له هذا الاحتكاك المطوّل بتلك المجتمعات إصدار مجموعة من أبحاثه الأنثروبولوجيّة التي صنعت شهرته، وزادت من الإعجاب به في الأوساط الأكاديميّة[١٩]، حيث يرى الأنثروبولوجي إدموند ليتش أنّ سبب الإعجاب بكلود ليفي ستروس «ليس جدّة أفكاره، بقدر ما هو تلك الأصالة والجرأة اللّتان تَسِمانِ تطبيقه لهذه الأفكار، فقد اقترح طرائق جديدة في النّظر إلى الوقائع المألوفة»[٢٠].

وكانت من ضمن هذه الطّرائق الجديدة المُقترحة تلك المتعلّقة بمفهوم الثّقافة، حيث ابتدع تعريفًا جديدًا له -الثّقافة- عجّل بالقضاء على تلك التّعاريف التي خضعت خلال مرحلة زمنيّة طويلة لتأثيرات نزعة التّمركز العرقي[٢١]، ووفق هذا المنظور الجديد لمفهوم الثّقافة الذي ابتدعه ليفي ستروس فإنّه لم يعد بالإمكان أن نرتّب الثّقافات ترتيبًا تفاضليًّا[٢٢]، حيث يذهب ليفي ستروس إلى تأكيد هذا التّوجّه ضمن كتابه العرق والتّاريخ حين يقول أنّه لا شيء «يسمح بتأكيد التّفوّق أو الدّونيّة لعرق من الأعراق بالنّسبة إلى عرق آخر»[٢٣].

ولذا فإنّ التّعريف البنيوي لمفهوم الثّقافة يقوم على اعتبار الثّقافة منظومة

(١٩) للإطّلاع على أهم أبحاث ليفي ستروس وتواريخ إصدارها. [انظر: إدموند، ليتش، **كلود ليفي ستروس- دراسة فكريّة**-، ترجمة ثائر ديب، دمشق، منشورات وزارة الثّقافة، (٢٠٠٢)، (ص/ ٧- ١٠)].

(٢٠) المرجع السّابق، (ص/ ٥).

(٢١) لكلود ليفي ستروس مواقف مشهورة مضادّة تمامًا لنزعة التّمركز العرقي، للإطّلاع على هذه المواقف. [انظر: كلود، ليفي ستروس، **العرق والتّاريخ**، ترجمة سليم حدّاد، بيروت، المؤسّسة الجامعيّة للدّراسات والنّشر، (٢٠٠٨)، (ص/ ١٣- ١٨)].

(٢٢) التّيجاني، القماطي، **الثّقافة بين الأنطولوجي والأنثروبولوجي**، مجلّة الفكر العربي المعاصر، بيروت، مركز الإنماء القومي، (عدد ١٢٠، ١٢١)، (خريف، شتاء ٢٠٠١، ٢٠٠٢)، (ص/ ٣٤).

(٢٣) كلود، ليفي ستروس، مرجع سابق، (ص/ ٥).

تشمل كل المجتمعات مها بلغت من قِدَمٍ وتواضُعٍ، فهي تشمل كل ما أضافه الإنسان على المحيط الطّبيعي، وتضطلع بالدّور الأساسي في نحت الشّخصيّة وتشكيل الأنماط السّلوكيّة[٢٤]، كما يذهب ليفي ستروس إلى أبعد من ذلك من خلال اعتباره أنّ عالم الرّموز الثّقافيّة ليس حكرًا على ثقافة دون أخرى، بل أنّ عالم الرّموز كامن في كل الثّقافات.

ولذا فإنّ التّعريف البنيوي لمفهوم الثّقافة يقوم على اعتبار الثّقافة منظومة تشمل كل المجتمعات مها بلغت من قِدَمٍ وتواضُعٍ، فهي تشمل كل ما أضافه الإنسان على المحيط الطّبيعي، وتضطلع بالدّور الأساسي في نحت الشّخصيّة وتشكيل الأنماط السّلوكيّة.

وهو بمثابة رد مباشر على أنصار المفاضلة بين الثّقافات، حيث يذهب هؤلاء إلى إنكارهم لحضور الرّموز في ثقافات الشّعوب غير الغربيّة والتّقليل من شأنها، باعتبارها ثقافات بسيطة ساذجة، فهي تخلو وفق تصوّرهم من الرّموز بل ليست جديرة بإنتاجها، في حين يرون أنّ الثّقافات الغربيّة باعتبارها ثقافات راقية فهي مُفعمة بالرّموز، حيث يرد ليفي ستروس على هؤلاء بالقول «كلّ ثقافة يمكن اعتبارها مجموعة من الأنساق الرّمزيّة، يأتي في طليعتها اللّغة وقواعد الزّواج والعلاقات الاقتصاديّة والفن والعلم والدّين، كل هذه الأنساق ترمي إلى التّعبير عن بعض مظاهر الحقيقة المادّية والحقيقة الاجتماعيّة، وأكثر من ذلك تعبّر عن العلاقات القائمة بين هذين النّوعين من الحقيقة، أو بين الأنساق الرّمزيّة»[٢٥].

لقد فتح هذا التّعريف الجديد لمفهوم الثّقافة الذي جاء مع التّيار البنيوي من خلال أعمال رائده ليفي ستروس، بؤر بحث وتفكير جديدة في ثقافة المجتمعات من المنظور الأنثروبولوجي بشكل أعمق وأوسع ممَّا كانت عليه، لأنّ هذا التعريف لمفهوم الثّقافة عمل على تأكيد وجود نقاط قاعديّة مشتركة بين جل الثّقافات[٢٦]، كما أمكن لهذا التّعريف أن يتجاوز تلك المقابلة التي

(٢٤) التّيجاني، القماطي، مرجع سابق، (ص/ ٣٤).

(٢٥) كاترين، كليمان، مرجع سابق، (ص/ ٣٩).

(٢٦) Jean François, Couet, et Autres, (op.cit), (p ٥٤/).

ظلّت لصيقة بين الثّقافة والطّبيعة، فليس هناك ثقافة إلا بعد تجاوز الطّبيعة، ولذا يُصبح العالم البيولوجي شيئًا ثانويًا بالنّسبة إلى عالم الثّقافة[٢٧].

وبرغم أنّ الحراك التّصاعدي الذي عرفته البحوث الأنثروبولوجيّة منذ ميلاد هذه الأخيرة والذي سعى إلى الخوض في مسألة جوهريّة تتّصل بمفهوم الثّقافة، باعتباره يُمثِّل المركز والمحور الأساسي الذي يؤطّر مختلف الممارسات الإنسانيّة بشقّيها المادّي والمعنوي، وتتأسّس عليه جلّ التّصوّرات والتّمثّلات والرّؤى لمختلف الموضوعات والقضايا التي تشغل تفكير الإنسان في حياته اليوميّة، إلاّ أنّه لم يُتوَّج بصياغة تعريف دقيق ومختصر لمفهوم الثّقافة يكون محلّ إجماع بين جل الباحثين في حقل الدّراسات الأنثروبولوجيّة[٢٨].

غير أنّ هذا الحراك الذي أتينا على استعراضه فيما تقدّم، نجح في تهشيم الرّؤى والتصوّرات التقليديّة التي ظلّت لصيقة بمفهوم الثّقافة، وأفضى هذا المسار إلى رسم المعالم الرّئيسيّة والخطوط العريضة لما يُمكن أن نصطلح على تسميته بالفضاء أو المجال الدّلالي لمفهوم الثّقافة من المنظور الأنثروبولوجي، الذي يعتبر كل ممارسة مادّية كانت أو معنويّة صادرة عن مجموعة إنسانيّة مهما كانت طبيعة هذه الممارسة بمثابة ثقافة، فلا ينبغي أن تُعالج الثّقافة وفق منظور قيمي؛ إذ لا توجد ثقافة عليا وثقافة دنيا، وثقافة متحضّرة وأخرى متخلّفة، بل يُنظر إليها بعين المساواة فكل ممارسة مجتمعيّة تستبطن ثقافة[٢٩].

خاتمة:

في نهاية هذا البحث الذي جاء بعنوان: «مفهوم الثّقافة في البحوث الأنثروبولوجيّة»، -قراءة في سياقات النّشأة ومسارات التّداول- يمكن أن نخلص إلى جملة من الاستنتاجات نرى إمكانيّة إدراجها ضمن فكرتين أساسيّتين على النّحو الآتي:

(٢٧) عماد، عبد الغني، مرجع سابق، (ص/ ٤٩).

(٢٨) إنَّ عدم توصّل الباحثين الأنثروبولوجيين إلى تعريف دقيق لمصطلح الثّقافة يكون محلّ إجماع عالمي مرده إلى الظّروف التي عايشتها الأنثروبولوجيا خلال النّصف الثّاني من القرن العشرين؛ إذ « ... شابها الكثير من التّضارب ... وافتقدت إلى الاستقرار الأكاديمي الذي عرقل توصّلها إلى نظريّات علميّة، على الرّغم من النّقاش الموسّع حول النّواحي المنهجيّة، ما دفع البعض إلى التّساؤل عن أهمّية هذا النّزاع المنهجي، الذي يدور حول الكيفيّة التي تُدرس بها الثّقافات الإنسانيّة، وصلة ذالك بقضايا الإنسان المعاصر». [انظر: عماد، عبد الغني، مرجع سابق، (ص/ ٦٣)].

(٢٩) لقد تعرّض هذا التصوّر الخاص بالثّقافة من المنظور الأنثروبولوجي إلى انتقاد شديد، من قبل بعض أنصار التّيارات الفكريّة والأدبيّة.

- إنّ تبلور مفهوم الثّقافة من المنظور الأنثروبولوجي والذي صار متداولًا في الدّراسات والأبحاث الأنثروبولوجيّة المعاصرة، جاء بفعل مسار طويل من البناء والتّراكم- كما أسلفنا في العناصر السّابقة من بحثنا- بداية بالتّعريف التّأسيسي لتايلور، مرورًا بتلك الجهود والمحاولات لأقطاب المدرسة الثّقافيّة الأمريكيّة، وانتهاء بالتّيار البنيوي الذي نجح في تهشيم المفاهيم التّقليديّة التي التصقت بالثّقافة طيلة عقود طويلة، من خلال وضع حد لتلك النّظرة التّفاضليّة للثّقافات القائمة على نزعة التّمركز العرقي.

- برغم أفول المفاهيم التّقليديّة للثّقافة وضمور الرّؤى والتصوّرات التي غذّت تلك المفاهيم التّقليديّة وهيمنت عليها، فإنّ المجال الدّلالي لمفهوم الثّقافة من المنظور الأنثروبولوجي يظلّ متحرّكا وغير قارٍّ، بفعل اتّساعه وهلاميته من جهة، وكذا بفعل خضوعه لجملة من العوامل الإبستيمولوجيّة التي تتحكّم فيها عدد من الاعتبارات المتعلّقة بالمشارب الفكريّة والمنهجيّة للباحثين، وتلك التي تتعلّق بطبيعة البحوث الأنثروبولوجيّة من جهة أخرى.

مركز نماء للبحوث والدراسات
Namaa Center for Research and Studies